

تربية النفس على الأخلاق الوسطية عند الإمام الغزالي

د. تريو سوبري يتنو

(Triyo Supriyatno, Ph.D)

قسم التربية الإسلامية بجامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية بمالانق

trios70@yahoo.com

د. أحمد فتح يسين

(Dr. A. Fatah Yasin)

قسم التربية الإسلامية بجامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية بمالانق

a.fatahyasin@yahoo.com

ملخص:

أن إطلاق صفة "الوسطية" على أمر شرعي يستلزم الخيرية والبيئية. أن الوسطية في الأخلاق ممكنة وذلك بتعويد النفس وتربيتها على ذلك. أن المطلوب ليس هو إزالة أصل الأخلاق كلياً وإنما ردها إلى حد الاعتدال. من أساليب التربية على التوسط والاعتدال في الأخلاق هو معرفة أسباب التطرف في الأخلاق وآثارها على النفس. أن الوسطية عند الإمام الغزالي ليس بالضرورة أن يكون معناها ما توسط بين أمرين، فقد تأتي بمعنى وضع الشيء في محله بما يتفق مع ضوابط الشرع ومصالحة الخلق، وتمثل فيه معنى الخيرية. أن علماء الأمة الأقدمين لم يغفلوا هذا الجانب، بل أولوه اهتماماً شديداً، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً في كتبهم، ومنهم الإمام الغزالي رحمه الله. وهذه دعوة أيضاً لدراسة هذا الجانب عند علماء الأمة كابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكذلك ابن حجر وابن الجوزي، وغيرهم كثير.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين

ويعد ...

فإن من أعظم نعم الله تعالى علينا أن جعلنا من هذه الأمة الخاتمة التي كرمها الله بخير كتاب أنزل وخير كتاب أرسل، ذلك أنها امتازت على باقي الأمم بسمات وخصائص عظيمة، كالعموم والشمول والوسطية، وغير ذلك مما جعلها خير أمة أخرجت للناس.

ووسطية هذه الأمة تشمل كل جوانب الدين من عقيدة وشريعة وأخلاق، والجانب الأخلاقي فيها جانب مهم كونه يمثل السلوك التطبيقي لأفراد الأمة، لذلك يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: "الدين كله خلق؛ فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين"¹.

¹ - مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار الكتاب العربي -

بيروت الطبعة الثانية، 1393 - 1973 (307/2)

والناظر في مؤلفات علماء الأمة يجد أنهم أولوا هذا الموضوع اهتماماً كبيراً ولم يغفلوه ، ومن هؤلاء حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله لذلك ارتأيت أن أبين نظرة هذا الإمام إلى الوسطية في واحد من أهم كتبه وهو " إحياء علوم الدين " فكان عنوان البحث هو : (تربية النفس على الأخلاق الوسطية عند الإمام الغزالي)

المطلب الأول : نظرة الغزالي للوسطية في الأخلاق

لقد أولى الإمام الغزالي للأخلاق في كتابه "الإحياء" أهمية كبيرة ، فتكلم عن فضيلة حسن الخلق ، وأسباب نيل حسن الخلق ، وطرق تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، مع علامات حسن الخلق ، ومسائل أخرى استفاض في ذكرها في الكتاب الثاني من ربع المهلكات وهو كتاب (رياضة النفس -تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب -)

يقول الغزالي في مقدمة هذا الكتاب : (فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين وثمره مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والردائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد وأين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: (قد أفلح من زكاها) وإهمالها هو المراد بقوله (وقد خاب من دساها)² ودائماً ما يشبه الغزالي الأخلاق بالبدن ، وذلك في مواطن عدة في كتابه ، وقد صرح أنّ المقصود من ذلك هو تقريب الصورة من الأفهام³.

يقول الغزالي (الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا يقال فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال

² - الإحياء (49/3)

³ - المصدر نفسه (49/3)

تعالى {إني خالق بشرًا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا ، وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم).⁴

ثم يذكر الغزالي أن التوسط هو خير الأمور وأنّ الشرع الحنيف قد جاء بالمبالغة في منع التطرف فقال في " بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه "

(: اعلم أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق الوسط إذ خير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يوميء إلى أن الإفراط فيه مطلوب وهيهات ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يوميء عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان والعالم يدرك أن المقصود الوسط لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيتقوامان ويحصل الاعتدال فإن من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية فإنه إن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضا ما يدل على إساءته كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه .

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها فالمقصود أن يأكل أكلا لا يبقي للمأكل فيه أثر ليكون متشبهًا بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع وغاية الإنسان الاقتداء بهم وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال).⁵

وقد استدل الإمام الغزالي على أن التوسط في الأخلاق من الأمور المحمودة لثناء الله عز وجل عليها

في كتابه الكريم ، فيقول :

⁴ - الإحياء (53/3)

⁵ - الإحياء (96/3)

(والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أتى الله تعالى عليه فقال والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى { وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين } وقال في الغضب { أشداء على الكفار رحماء بينهم }، وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى : { إلا من أتى الله بقلب سليم } والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أي لا يكون ملتفتا إلى المال ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن التهور والعفة بين الشره والجمود وكذلك سائر الأخلاق فكل طرفي الأمور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن⁶)

وقد ضرب الإمام الغزالي للوسطية مثالا لطيفا يبين فيه أنه لا بد لكل فرد وإن ابتعد عن التوسط أن يعود إليه ، فيقول :

(ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط فلو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص فأشبهه أحواله بهم البعد وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط فصار الوسط مطلوبا في جميع هذه الأحوال المتقابلة وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم (خير الأمور أوسطها) وإليه الإشارة بقوله تعالى { وكلوا واشربوا ولا تسرفوا } ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوى على العمل مع خفته)⁷.

وأخيراً فإن الغزالي يرى أن العبد قد يبتعد عن الوسطية لغموضها ودقة معناها لكنه بالمقابل عليه أن يجتهد للوصول إلى الوسطية والاعتدال ، فيقول : (ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية

⁶ - الإحياء (57/3)

⁷ - الإحياء (96/3)

الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم أعني الوسط حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقا بالجانب الذي مال إليه ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة

فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيبنتي هود فلم قلت ذلك فقال عليه السلام لقوله تعالى فاستقم كما أمرت فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتقن كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين) ⁸.

المطلب الثاني : تربية النفس على الأخلاق الوسطية عند الغزالي

يرى الإمام الغزالي أنّ تعليم النفس وتعويدها على الفضائل كفيل باعتدالها ووسطيتها ، فيقول في تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق : (قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها ، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه، فلنتخذ البدن مثالا فنقول :

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه فكذلك النفس منك إن

⁸ - المصدر نفسه (3/ 63-64)

كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها.⁹

وللتأكد من اعتدال النفس وتوسطها في أخلاقها يضع الإمام الغزالي ضوابط محددة لتربية النفس على هذا المعلم ، منها : النظر في العلل التي أوجبت التطرف في الأخلاق ومعالجتها بضدّها للوصول إلى مرحلة الاعتدال ، فيقول (وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين)¹⁰.

ثم يردف بضابط آخر وهو النظر في الأفعال التي تنتجها الأخلاق المحذورة على النفس وترويضها على مخالفة هذه الأفعال ، فيقول : (إن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجب الخلق المحذور فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يصاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا).¹¹

وفي معرض الردّ على الذين يستصعبون تغيير النفس وتهذيبها وتعويدها على التوسط في الأمور ، أورد الغزالي بعض الشبه التي يتمسكون بها فمن هذه الشبه :

⁹ - الإحياء (3 / 60-61)

¹⁰ - المصدر نفسه (63/3)

¹¹ - الإحياء (63/3)

1- قولهم: أنّ الخلق هو صورة الباطن كما أنّ الخلق صورة الظاهر . فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى .

2- قولهم : حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة ، وعرفنا أنّ ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه لا ينقطع عن الآدمي ، فاشتغاله به تضييع زمان بغير زمان ، فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الخطوط العاجلة ، وذلك محال وجوده¹² .

فقال في الجواب عن الشبهة الأولى : (لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاء إلى الأئس والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماع إلى السلاسة والانتقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسما والكوكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك¹³ .

أما الشبهة الثانية فقال في ردّها : (وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به وهو قولهم إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبله فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهك ، ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط والمطلوب في صفة الغضب حسن الحماية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقاداً للعقل ولذلك قال الله تعالى أشدء على الكفار رحماء بينهم وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن

¹² - ينظر المصدر نفسه (3 / 55)

¹³ - الإحياء (3 / 56)

الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر¹⁴.... وقال تعالى {والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس} ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانسياط إلى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها¹⁵.

المطلب الثالث : نماذج تطبيقية لوسطية الأخلاق

ذكر الغزالي بعض الأمثلة التي تبين معنى الوسطية في الأخلاق ، والذي يظهر من كلامه أن الوسطية هي ما تحقق فيها معنى الخيار وموافقة الشرع الحنيف وليس شرطاً أن يكون معناها ما توسط بين أمرين ، فمن ذلك :

1- المثال الأول : في بيانه لمعنى الرفق والعنف

يقول الغزالي : (اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدة الغضب وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكير ويمنع من التثبت فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال)¹⁶ وذكر نصوصاً كثيرة في مدح الرفق وبيان أجره ، ثم أعقبها ببعض النصوص التي تبين أن الشدة المطلوبة في مكانها والرفق مطلوب في مكانه ، ثم قال :

(وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

¹⁴ - حديث (إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، برقم

(6792) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت، (8/26)

¹⁵ - الإحياء (57/3)

¹⁶ - الإحياء 184/3

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف وإن كان العنف في محله حسنا كما أن الرفق في محله حسن فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألد من الزيد بالشهد وهكذا، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: روي أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأنى فكتب إليه معاوية أما بعد: " فإن الفهم في الخير زيادة رشد، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الجانب من خاب عن الأناة وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا، وإن العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئا، وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ، ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي " ، وعن أبي عون الأنصاري قال: " ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة أليين منها تجرى مجراها " ، وقال أبو حمزة الكوفي: " لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه فإن مع كل إنسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه " ، وقال الحسن: المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل " ، فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواضع العنف فيعطي كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعه من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجاح معه في الأكثر)¹⁷.

2- المثال الثاني : في بيانه لمعنى الجود والبخل

ذكر الغزالي أنّ البخل والشح من المهلكات ، وهو خلق منهي عنه شرعاً ، وأنّ خلق الجود والسخاء مما جاء التأكيد عليه والثناء على صاحبه ، لكنه طرح سؤالاً عن الفارق بينهما وما هو حدّ كل منهما ؟ فبعد أن أورد عدة تعريفات لهما قال : (وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل، بل نقول: المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل.

فالإمساك حيث يجب البذل وبخل والبذل حيث يجب الإمساك تذبذب

وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء وقد قيل له: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} [الإسراء: 29] وقال تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} [الفرقان: 67] فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ولا يكفي أن

يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه ، فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو مُنْسَخٍ وليس بسخي بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه¹⁸ .

بعد هذين المثالين يتضح لنا معنى الوسطية عند الإمام الغزالي وأنه ليس بالضرورة أن يكون معناها ما توسط بين أمرين ، فقد يأتي بمعنى وضع الشيء في محله بما يتفق مع ضوابط الشرع ومصلحة الخلق .

خاتمة بأهم النتائج

بعد هذه الدراسة لبيان مفهوم " الوسطية " عند علم من أعلام المسلمين وهو الإمام الغزالي رحمه الله تعالى نستخلص الأمور الآتية :

- 1- أن الوسطية ليست مصطلحاً حديثاً ، بل هو مصطلح أصيل وارد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم . وإنما كثر الحديث عنه في وقتنا لتطرف بعض الناس عنه وابتعادهم عن معناه .
- 2- أن " الوسطية " لفظ لها معانٍ عدة في الجانب اللغوي والاصطلاحي ، وأن إطلاق صفة "الوسطية " على أمر شرعي يستلزم الخيرية والبينية .
- 3- أن الوسطية في الأخلاق ممكنة وذلك بتعويد النفس وتربيتها على ذلك .
- 4- أن المطلوب ليس هو إزالة أصل الأخلاق كلياً وإنما ردها إلى حد الاعتدال .
- 5- من أساليب التربية على التوسط والاعتدال في الأخلاق هو معرفة أسباب التطرف في الأخلاق وآثارها على النفس .
- 6- يتضح لنا فيما مرّ سابقاً أن الوسطية عند الإمام الغزالي ليس بالضرورة أن يكون معناها ما توسط بين أمرين ، فقد تأتي بمعنى وضع الشيء في محله بما يتفق مع ضوابط الشرع ومصلحة الخلق ، وتمثل فيه معنى الخيرية .
- 7- أن علماء الأمة الأقدمين لم يغفلوا هذا الجانب ، بل أولوه اهتماماً شديداً ، وبظهر ذلك واضحاً وجلياً في كتبهم ، ومنهم الإمام الغزالي رحمه الله . وهذه دعوة أيضاً لدراسة هذا الجانب عند علماء الأمة كابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكذلك ابن حجر وابن الجوزي ، وغيرهم كثير .

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا البحث طلبة العلم ، فما كان فيه من صواب فمن الله وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان وأستغفر الله العظيم منه ، والله الهادي إلى سواء الصراط .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .